

شيطان الدراويش

info@darak-egy.com 010 27251915 --02 24832669
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.



شيطان الدراويش

عصام منصور

تصميم الغلاف : كريم آدم

تدقيق لغوي : لمياء مختار

رقم الإيداع : 2016 / 23598

الترقيم الدولي : 7 – 5 – 85316 – 977 – 978

الطبعة الأولى : 2017

عصام منصور

شيطان الدراويش

رواية



إهداء

إلى جدي الأكبر، السيد الشريف (ضاحي)، حفيد السيد الشريف
(محمد الأكبر)، حفيد السيد الشريف صاحب الوقت (عبد السلام بن
مشيش)، حفيد السيد الشريف (إدريس الأول)، مؤسس دولة
الأدارة.

" إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغطهم الأنبياء
والشهداء يوم القيامة لمكانتهم من الله تعالى "

الجزء الأول
أعتاب الأوركيد

وردة

استغل ملك الريح تأجج الشمس كعادتها منذ الأزل، ودفعها لتفاعلات طقس الأرض، كي يسوق فيوض الرياح، فتهب على قلعة (قايتباي) — (الإسكندرية)، لتبتهج الأحجار المنصوبة منذ القرن الخامس عشر الميلادي، ويصفر الهواء المرح بين جنبات ممرات قلعتها، كحوقة ربانية مجيدة. واستمرت قوة الهواء في التراجع، وهي تتوغل جنوب البلاد، حتى صارت مجرد أنسام صيفية شحيحة، مع وصولها للصعيد، وتسللها من الجهة البحرية منهكة، لتلك الدار المبنية بالطين اللبن؛ حتى داعبت وجنة الصبي الأزهر، قبل أن تبدد داخل رثتيه الفتيتين، فتنفس نسيمها بعمق، لعل الهواء القادم من (بحري) كما يطلقون على الشمال، يخفف الحر اللافح. هو لا يعرف ما الذي ينبغي الشعور به بالضبط أمام محدثته، أو كيف يرد على جدته الرؤوم (الشريفة رقية)، المعروفة في تلك النواحي بريف (سوهاج).

الموت مازال فكرة مبهمة في وعيه الرقيق، والاختفاء لا يختلف كثيراً، حتى ولو ذكر بالتوازي مع الموت، ولكن جدته ربتت على ظهره حتى يعاود اللعب، وهي تكرر:

- قد فوضت أمري وأخبرتكم.. إن أمكما قد ماتت، وأبوكما اختفى..
وعندما تكبران ستفهما أن أكثر.

تأمل (سراج) شفيتها، والخطين الأخضرين على ذقنها، وصوت نقيق بعيد يتناهى لأذنيه الدقيقتين، ثم نظر إلى توأمه، وعادا للعبهما بأعواد بسيطة من البوص.. بينما رفض شقيقهما الأكبر الجلوس والسماع منذ البداية، مفضلاً الجري بالحمار في الحقل الممتد أمام الدار، كعادته، رغم توبيخ جدته له بسبب نشاطه الجم، وحمولاته من جبال الغبار، وعدم سقيا الحمار في هذا الطقس الجنوبي الحامي.

كان (سراج) يتذكر الجنازة، واعتراضه على صعود أمه للسماء كما أخبروه وقتها، ولكنه ما فتئ ينتظر عودتها صباح كل يوم.

بعد دقائق خرجت المرضعة، ووضعت (فكرية) في حجر الشريفة، ثم كالعادة حاولت التملص:

- بحق الكعبة يا سيدتي.. لن أنال مليماً.

- لا ترهقيني يا أم (جمال).. عليك بالتزام الشهرية.

تصنعت ضيقاً مع رضوخ، عتاباً مع استسلام، حرجاً مع الكثير من اللهفة التي لا يمكن إخفاؤها إلا بمشقة:

- هذا الشهر فقط يا كبيرتنا.. بعدها لن أرضع المحروسة بمال الدنيا، يكفيننا شرف القرب من مولاتنا.

ولم تول الشريفة اهتماماً بإحصائها للملايم أثناء مغادرتها، إذ ألقت بصرها سريعاً على الرضيعة الغافية، وقد أشرق وجهها بالنور والرواء. هي حباً ورقة، والرضيعة هناءة في نومها الصامت. وقالت للغافلة كقطة بيضاء حديثة الولادة:

- وأنت يا (فكرية) ستعرفين أيضاً يوماً.. ولكنك صغيرة للغاية الآن..
صغيرة للغاية.

وقبلتها بجنان غامر، طالما وزعته على التوأمين عندما كانا يرضعان من الثدي
أمهما في نفس الوقت، ويشبعان في نفس الوقت، وينامان في نفس الدقيقة،
كعادة التوائم، وفكرت في حزن صامت في ابنتها الوحيدة الراحلة.. تاركة
أولاء الأحفاد أيتاماً. ثم دلكت صدرها فوق القلب، عندما عاودها ألمها
العميق، كأنها تريد اختراق قفصها الصدري، لتضغط على القلب المسن
مباشرة.

القلب الذي طالما ضحك وأطلق الزغاريد، في ليلة العمر، عندما عقد
(حلمي الغرباوي) قرانه، على ابنتها (وردة لبيب).. ورده المحافظة كلها، بل
الصعيد بأسره.. كم كانت رقيقة كزهرة يانعة ليلتها، وكم بدا عريسها
كفارس، وهو يرقص جواده بمهارة وثقة على غناء الزمار البلدي، وقد لف
رأسه بعمامة بيضاء نظيفة، واستمرت فروسيته حتى أنجب التوأمين.. ثم بدأ
يتحول لوغد.. وغد لا يليق بكونه أباً للتوأمين العزيزين.. ربما نال (رشاد)
شيئاً من خصاله الدنيئة، فهو ابنه البكري، الذي استطاع الحصول على والده
في فترة البقاء، ويا ليته ما عاصره أو اتصل به، ويا ليته ما تشرب منه العنف
والاستهتار وسرعة الغضب، سرعة الغرور، سرعة التدليل.. بعد هذه الفترة
بحسنتها وشروها، بدأ غياباته في المحافظات الشمالية البعيدة.. وبدأ مجونه.

(رشاد)، استغاثت منه أمه نفسها.. (وردة) العطوف كانت تبذل قصارى
جهدها للسيطرة عليه بمفردها، مع غياب الأب، حتى أنها كانت تخشى عليه من
غضب (حلمي الغرباوي) لو أصاب التوأمين بالأذى، ولم تجد الأم والجدة من

حل، سوى أن تربي الأخيرة التوأمين في منزلها الريفي، حتى تنصلح أخلاق (رشاد)، ولكن والده كان قد بذر فيه البحث عن القوة والرياضة، ولو بالعنف، في عالم غير مأمون، عدائي، غير مصمم لحماية البشر، ولا تصلح فيه إلا المادية، ولم يفلح رفق ورقّة (وردة) في حصار شطحات ابنها الأكبر.

وبعد أن أنجبت جارتها أم (فكرية) الأرملة، وأصولها من (شطورة)، ووضعت وليدة قوية الجسد منذ أشهر، لحقت برها إثر لدغة حية من حيات الحقول، تاركة رضيعتها لرب كريم، فأرضعتها (وردة)، وأشفقت عليها، حتى وقعت الواقعة.. ورحلت بدورها فجأة، واختفى (حلمي الغرباوي) من دون سبب مفهوم.

كانت النازلة أكبر من المأزق، ولكن الأطفال الأربعة لم يكن لهم سواها، يومها بدأ ألم قلبها، ويومها بدأت تربي الإخوة الثلاثة وأختهم في الرضاعة، ويومها أقسمت أن تخبرهم بالحقيقة.. كل الحقيقة.

* * *

توائب (سراج) جسدياً، وقلبياً، وهو يتشبث بيد خاله (لطيف)، بعد أن استجابت جدته الشريفة لتوسلاته، وأمرت ابنها الوحيد باصطحاب الصبي لمولد (أي القاسم) الشهير، وقد أنساه قلبه المتعلق بالمناسبة المثيرة، كل سخریات (رشاد) من سذاجة خاله المعروفة، وطيبته حد الضعف والخجل. وكانت جدته تقول له أن خاله (لطيف) وأمثاله من الدراويش هم (عيال الله)، ولا داعي لتقليل احترامهم مثقال ذرة، ولم يتوقف إجلال (سراج) لخاله البسيط منذ أن سمع اللقب العجيب، وقد بدا أن له وقعاً مهيباً.. عيال الله..

وفي المولد امتطى الأرجوحة، ولعب كل الألعاب، وتفرج على الحاوي والرفاعي، وضحك على القراجوز؛ حتى حانت الفقرة الكبرى التي يُطلق عليها اسم (الدوسة)، وفيها يدوس حصان شيخ الصوفيين على أجساد شباب الطريقة، دون أن يصابوا بأذى، رغم استحالة هذا، ورغم نفور أي جواد طبيعي غريزياً من هذا التعذيب، ولكن العرض المذهل كان يجري وسط التكبيرات المتكررة باسم الله المفرد (الله)، ثم ينهض المدوس بمرونة فائقة كأنه يعلن أنه بخير وفي أتم الصحة، وأن كرامات الطريقة متحققة؛ ثم تبدأ الإعجازات الحقيقية، عندما يبدأ المستعرضون في ابتلاع الأفاعي، وغرس الأسياخ في الحدود بدون نرف أو ألم، والنوم عراة على قطع الزجاج الحادة، وغيرها من المذهلات، التي طار لها لب الناس، وزاد اعتقادهم في مشايخهم، واتسعت معها أعين (سراج) حتى أنه نسي الدنيا وما فيها، ولم يبق أمامه سوى شئ واحد كبير، هو الأكبر والأعظم.. المولد.

ولكن لكل وقت أذاناً ونهاية، فلما حان وقت العشاء، اصطحبه خاله للصلاة، وحاول هو إمطاره بالأسئلة، لكنه وجد فيه شيئاً غريباً لم يستطيع تفسير فحواه. رآه وقد اكتسى بسكينة مفاجئة، وهو يصفح بعض الفقراء الجامدين، الذين كانوا يبتسمون له في ود وتقدير، بينما لم يلاحظه بعضهم من الناشطين، حاملي المسابح والبخور لبيعها، رغم أنه كان يجيهم بلسانه على الأقل، وبعد الصلاة سأله (سراج):

- هل كنت تلقاهم كل عام يا خالي؟

- من هم؟

- أولئك الذين صافحتهم؟

تعجب الرجل للحظات، ثم تمتم بشيء ما، ورفع يديه بالدعاء والشكر، قبل أن يربت على الطفل، وهو يبتسم في بلاهة:

- لا أعرفهم.

- كيف هذا يا خال.. لقد رأيتك تصافحهم.. بينما لم يهتم بك الآخرون.. رغم أنهم فقراء كذلك.

- هؤلاء غير هؤلاء.. لكني لا أعرف أيّاً من الجميع.

للحظة تأمله (سراج) في شك.. هل عاد خاله لسذاجته.. لكن الرجل أسرع يقول بحماس:

- هيا نشترى النّبَق وَحَبّ العزیز.. أعرف امرأة عجرية تبيع الأفضل.

وعاد (سراج) للاندماج في خبايا المولد، وزحامه وهداياه ودرأويشه ذوي المسابح والطواويق¹، وقد نسي الموقف. لدى عودتهما لدار الشريفة (رقية)، كان (صلاح) يبكي بحرقة، وقد أعلن استيائه من تحرش شقيقه (رشاد) به، وهو يصيح من وسط دموعه:

¹ الطاق هو الطيلسان، جمعه القياسي طيقان أو أطواق، وكلمة "طواويق" هي جمع استثنائي مفردة طاووق ويوجد في بعض المتون القديمة.

- استيقظت لأجد خالي قد اصطحبك أنت فقط، بدأت البكاء لكن في هدوء، وقد كنت أبغي رفقتكما، وجاء (رشاد) يوبخني على بكائي، ولإغاضتي حطم زهرتي.

كان يمسك بزهرة من البوص والورق، صنعها خلال يومين كاملين ليعلقها فوق فراشنا المزدوج، وقد تمزقت شر ممزق، بينما (رشاد) يتسم في تشفٍ - من بين دموعه - بعد أن نال عقابه من جدتهم.

ولكن في نهاية اليوم، لم يفكر (سراج) فوق فراشه سوى في أضواء المولد الملونة.



0224832669 - 01027251915



info@darak-egy.com



<https://www.facebook.com/darak.publishing>